Available online at http://jgu.garmian.edu.krd

Journal of University of Garmian

https://doi.org/10.24271/garmian.2023.10354

الأسباب السياقية لنشوء ظاهرة "المعارضة الروائية" في الخطاب الروائي العربي المعاصر

رمضان محمود كريم، علي محمود أحمد

قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كرميان، اقليم كردستان العراق

Article Info

Received: June, 2023

Revised: June, 2023

Accepted: July, 2023

Keywords

الأسباب ، ظاهرة ، المعارضة ، السياقية

Corresponding Author

ali.mahmood@garmian.edu.krd

ramadhan.mahmood@garmian.edu.krd

الملخص:

يتلخص هذا البحث الموسوم بـ (الأسباب السياقية لنشوء ظاهرة " المعارضة الروائية " في الخطاب الروائي العربي المعاصر) بأنه دراسة فريدة وجديدة تسلط الضوء على ظاهرة (المعارضة الروائية) بوصفها أُسلوباً فنياً جديداً مستحدثاً في السرد الروائي العربي المعاصر ، ابتكرته ووظّفته مجموعة من الروائيين العرب المتميزين في السنوات العشر الماضية ، لما يُتيحه لهم من آفاق واسعة للتعبير عن أهم المستجدات والتحولات السياسية والفكرية والاجتماعية في المنطقة العربية ، ولما يوفِّره من وسائل فنية جديدة للتعبير ، عن طريق الإفادة من الموروث الفكري والفني لأهم الكلاسيَّات الروائية العالمية ، فبيَّنَّا مفهوم المعارضة الروائية وأهم الأسباب السياقية التي أدَّت الى نشوئها ، وخضنا في أهم المستجدات والتغيُّرات السياسية والاجتماعية التي طرأت على المنطقة العربية التي انعكس تأثيرها على كل النتاجات البشرية بما في ذلك الأدب ولاسيما جنس الرواية بوصفه أكثر الأجناس الأدبية تأثُّراً بالسياقات المعيشة وتأثيراً عليها ، لذا وقفنا عند أهم الأسباب السياسية والاجتماعية التي أثَّرت في تطور الرواية العربية المعاصرة عن طريق استحداث أساليب صياغية جديدة أهمها (المعارضة الروائية).

المقدمة:

يعد هذا البحث الموسوم بـ(الأسباب السياقية لنشوء ظاهرة " المعارضة الروائية " في الخطاب الروائي العربي المعاصر) جزءاً مستلّاً من إطروحة دكتوراه موسّعة عن ظاهرة المعارضة الروائية ، بوصفها معطى طبيعياً من معطيات التطور المستمر الذي يطرأ على الأجناس الأدبية ولاسيما الرواية بوصفها الجنس الأدبي الأكثر قابلية على التطور والتحديث والتأثير والتأثُّر على مستوى الشكل والمضمون ، كونها الأكثر قدرة على إبتكار وسائل فنية جديدة والتعبير عن مستجدات العصر والواقع والتأثُّر بها ، فهذه الظاهرة بدأت تتبلور في بداية العقد الثاني من هذا القرن ونضجت في نهايته ، إذ تجسّدت في عدة نصوص عربية روائية متميزة على نحوٍ غير مسبوق ، وفتحت للرواية العربية آفاقاً - موضوعية وفنية - رحبة جعلتها ترتقي لمستوى العالمية .

ولأن أن هذا البحث مستلٌّ من سياقه الأوسع وخاضع لسياقات النشر في المجلات الأكاديمية ، فإننا على علم ودراية بأن ليس بإستطاعتنا عرض كل متعلقات الموضوع وجزئياته على نحوٍ تام كما هي في الاطروحة ، لذا حاولنا جاهدين تقديم هذا الجزء من الاطروحة على شكل بحث أكاديمي قائم بذاته بصدد موضوع محدد ، وإن كان فيه فجوات في المنهجية أو عرض المعلومة أو الإشارة لبعض التفاصيل ، فما ذلك إلاَّ بسبب الإستلال من السياق والخضوع لشروط النشر التي تحول من دون التفصيل في الموضوع .

وقد جاء هذا البحث مقسَّماً على تمهيد ومبحثين ، بيـَّنـَّا في التمهيد مفهوم المعارضة الروائية ، والتحوُّلات الكبيرة التي طرأت على المنطقة العربية وأنعكست آثارها على نحوٍ كبير في الخطاب الروائي العربي الذي أصبح ذا طابعٍ معرفي يسعى لفهم الواقع ومواكبة تغيُّراته السريعة والتعبير عنها ، أما المبحث

الأول فخصَّصناه لعرض أهم الأسباب السياسية التي أثَّرت في نشوء ظاهرة المعارضة الروائية ، في ظل الدور المؤثِّر الذي غدت تمارسه السياسة في كل النشاطات الإنسانية ، و المبحث الثاني خصَّصناه لعرض أهم المستجدات والظواهر الإجتماعية الجديدة في المجتمعات العربية ، تلك المستجدات التي كان لها تأثير كبير في نشوء ظاهرة المعارضة الروائية ، ثم قدَّمنا جملة من النتائج التي توصَّلنا إليها ، وختمنا البحث بقائمة حوت على المصادر والمراجع التي إعتمدناها .

التمهيد (المعارضة الروائية) المفهوم وسياقات النشوء :

نقصد بـ(المعارضة الروائية) : ظاهرة أدبية مستجدة ، تجسّدت في الخطاب الروائي العربي المعاصر منذ العقد الثاني من هذا القرن ، وتتمثَّل في معارضة عمل روائي عربي معاصر لعمل روائي أجنبي سابق له ، يحظى بشهرة عالمية ومستوى فني عالٍ ، فيُعارض اللاحق السابق لعدة أسباب فنية وغير فنية ، وبعدة مستويات وبآليات متنوعة ، وتكون المعارضة صريحة تتم الإشارة فيها إلى العمل المُعارَض ، ودرجة المعارضة وشكلها الفني تختلف من عملٍ لآخر .

وتعد هذه الظاهرة مظهراً طبيعياً من مظاهر تطور الخطاب الروائي العربي على مستوى الشكل والمضمون ، وتعد من معطيات المرحلة المعيشة للواقع العربي في مرحلة مايسمَّى بـ(الربيع العربي) بوصفها منعطفاً كبيراً مرَّت به المنطقة العربية وأدَّت الى تغيُّرات كبيرة طالت كل مرافق الحياة وأصعدتها بما فيها الأدب ولاسيما جنس الرواية .

وقد جسَّدت هذه الظاهرة مجموعة روايات عربية معاصرة مثل (فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي التي عارض فيها على نحوٍ ما (فرانكشتاين) لماري شيلي ، ورواية (معارضة الغريب) لكمال داود التي عارض فيها (الغريب) لألبير كامو ، ورواية (المشطور) لضياء جبيلي التي عارض فيها (الفيسكونت المشطور) لإيتاليو كالفينو ، ورواية (2084 حكاية العربي الأخير) لواسيني الأعرج التي عارض فيها (1984) لجورج اورويل ، ورواية (حارس سطح العالم) لبثينة العيسى التي عارضت فيها مجموعة أعمال روائية كلاسية أجنبية مثل (زوربا اليوناني) لكازانتزاكيس و (451 فهرنهايت) لراي برادبيري و(مغامرات بينوكيو) لكارلو كلودّي . وغيرها من النصوص العربية التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية وستنتهجه مستقبلاً كون هذه الظاهرة توفر مساحة كبيرة للكاتب وتمنحه آفاقاً واسعة للتعبير عن رؤى وتصورات جديدة تتناسب مع الواقع العربي المعاصر المستجد في حقبة الربيع العربي التي ما زالت المنطقة العربية تعيش تحولاتها المستجدة على مختلف الأصعدة.

وقضايا الرواية العربية ومضامينها هي قضايا الواقع العربي ، وهي متشعِّبة تشعُّب قضايا الإنسان العربي ومشكلاته وتنوعها ولاسيما في هذه المرحلة من تاريخ المنطقة العربية ، فالإنسان العربي بعد أن مرَّت عليه مرحلة "الصدمة" التي عاشها في العقدين الماضيين وجد نفسه محاطاً بأسئلة لاحصر لها عن ذاته وثوابته وواقعه المعيش وآماله ومعاناته وما طرأ من تغيُّرات جذرية على أصعدة الحياة ومستوياتها كافة نحو الأسوأ ، فبدأت الخطابات المعرفية التعبيرية تحاول فهم الواقع العربي والإحاطة بسياقاته على نحوٍ شامل منطقي ، ليتسنَّى لها التعبير عنه ، فبدأت منذ سنوات بتركيب أجزاء الفسيفساء لتتبيَّن لها معالم الصورة الجديدة للواقع العربي المعاصر .[i]

وبدأت تلك الخطابات تُحاكم التوجُّهات السياسية والاجتماعية والآيديولوجية والاقتصادية – محلياً وإقليمياً ودولياً- وتُحلل معطياتها ، كونها أسفرت – الى جانب عوامل أُخرى – عن تقويض وضع مستقر نسبياً كان قائماً ، وتركيبه من جديد على نحوٍ مُغاير أكثر سوءاً عمَّا كان عليه .

ولكون الخطاب الروائي العربي المعاصر أصبح ذا طابعٍ معرفي وله اهمية معرفية وثقافية كبيرة لما يتميَّز به من خصائص تعبيرية عن الخطابات الأُخرى ، ولقدرته على التعبير عن قدر كبير من المضامين والمحمولات والقضايا ؛ فأصبح يحمل في طيّاته أبعاداً سياسية واجتماعية وأيديولوجية وإنسانية ، ويُثير تساؤلات ، ويُقدِّم تصورات ورؤى جديدة عن الواقع العربي ومآلاته المستقبلية ، ويسعى للحصول على إجابات مُقنعة عن الأسباب التي أوصلت المنطقة العربية لما هي عليه من سوء أوضاع ومآسٍ وأهوال .

ومن ثمَّ نلاحظ مدى تأثير الواقع العربي المعاصر على الخطاب الروائي العربي ، ولاسيما المعطيات السياسية والآيديولوجية والاجتماعية التي أثَّرت في مضامينه وأغنته بموضوعات ورؤى وتصورات جديدة ومغايرة لم يكن لها وجود سابقاً ، فإضطرَّ أن يُجدد أدواته وطرائقه وأساليبه في التعبير ليواكب الواقع المستجد ، فظهرت فيه عدة خصائص ومظاهر جديدة أهمها – من وجهة نظرنا – اسلوب المعارضة الروائية بوصفه خاصِّية جديدة من خصائص الرواية العربية المعاصرة أسهمت في ظهوره عدة أسباب سياقية منبثقة من الواقع العربي ، سياسية واجتماعية سنُفصِّل في تأثيرها فيه فيما يأتي من هذا البحث .

المبحث الأول : الأسباب السياسية

تُمثِّل السياسة – اليوم – أحد الإهتمامات الرئيسة التي تشغل فكر كل مجتمع ولاسيما الطبقة المثقفة ، والإهتمام بها نابع من طبيعة الحياة في المجتمعات التي تُكافح من أجل الاستقرار والحصول على حقوقها أو المجتمعات التي تطرأ عليها تغييرات كبيرة وجذرية في أنظمة الحُكم ، لذا أصبحت السياسة في

المنطقة العربية - في ظل التغيُّرات السياسية التي شهدتها – تؤثر على نحوٍ كبير في كل مرافق الحياة وأصعدتها ، فحياة الفرد العربي أصبحت مسيَّسة على المستويات كافة ، فنُظم الاقتصاد والتعليم والقوانين الداخلية والعلاقات الخارجية ووسائل الإعلام والاتصال والانترنيت وحتى الفنون كلّها أصبحت متأثرة بالوضع السياسي ومرتبطة على نحوٍ ما بالدائرة التي تحكم القرار السياسي وتحركه ، لذا أصبحت السياسة بوصفها اسلوب حكم وطريقة إدارة وكيفية في صنع القرار وتنفيذه ذات اهمية كبيرة وتأثير كبير في كل أنساق الحياة في المنطقة العربية ، لذا يرى بعض المهتمين بالواقع العربي أنه يقع على عاتقها جزء كبير من المسؤولية عمَّا مرَّت به المنطقة في العقدين الماضيين من تحولات ومستجدات ، ولذلك اصطبغت شتّى الخطابات التعبيرية العربية في العقدين الماضيين بصبغة السياسة ، ولاسيما الخطاب الروائي الذي غدا البُعد السياسي يُشكّل أهم مضامينه ، فنجد أن الرواية العربية المعاصرة غدت أهم الأجناس الأدبية التي تربط الفن بالسياسة وتزاوج بينهما ، فراحت تتطلع – الى جانب المتعة الفنية – الى خلق معرفة وتقديم طرائق جديدة للتفكير في واقع الحياة وأسرار النفس الإنسانية والكون ، فأصبحت تحاول إحتواء مضامين وأبعاد لا تلتقطها بقية الخطابات الثقافية والمعرفية الأُخرى ، فنجدها تتغلغل في عُمق القضايا السياسية العربية وتخوض في سياقاتها المحلية والإقليمية والدولية وتنفذ الى جوهرها العميق الذي يمكن عن طريقه إدراك معطيات الواقع والتنبُّؤ بالمستقبل .[ii]

فالعلاقة الجدلية بين الرواية العربية والسياسة كانت ومازالت وستبقى حصيلتها النهائية إغناء النتاج الروائي العربي بمضامين وأفكار ورؤى وتصورات جديدة ، تُسفر دائماً عن نتائج إبداعية مبتكرة [iii] . وهذا ما حصل في السنوات القليلة الماضية ، إذ كان الوضع السياسي العربي المتأزم - الذي أسفر عن تغيُّرات كثيرة إنعكست على كل مرافق الحياة وأصعدتها – سبباً رئيساً في ظهور اسلوب أو ظاهرة (المعارضة الروائية) ، فالروايات العربية التي جسَّدت تلك الظاهرة سلَّطت الضوء وخاضت على نحوٍ معرفي وموضوعي جريء في الوضع السياسي القائم في المنطقة العربية وتأثَّرت به ، والذي يعد على وفق تصور تلك الروايات سبباً رئيساً لما وصلت إليه المنطقة العربية من دمارٍ ومآسٍ مهولة ، لذلك كان البعد السياسي بعداً أساسياً في أبعادها التي قدَّمتها وتطرقت إليها .

فروايات مثل حكاية العربي الاخير 2084 ، وحارس سطح العالم ، والمشطور ، وفرانكشتاين في بغداد ، ومعارضة الغريب ، كانت في وجهٍ من وجوهها ذات طابعٍ ساسي نقدي ، إذ قدَّمت رؤية عميقة عن الوضع السياسي العربي السيِّء وما أسفر عنه من نتائج كارثية أثَّرت سلباً في واقع المنطقة العربية.

والرواية السياسية هي الرواية التي تؤدي فيها القضايا والمضامين السياسية دوراً كبيراً على نحوٍ صريح أو رمزي ، وتكون تلك القضايا محورية ومهمة وكبيرة تشغل بال أفراد المجتمع وتثير مشاعرهم وتؤثِّر في سلوكهم ، والنماذج الجيدة من الرواية السياسية تذوب فيها الرؤية السياسية لتصبح جزءاً عضوياً من نسيجها الفني وبُعداً رئيساً من أبعادها المعرفية .[iv]

إن الروايات العربية المعاصرة التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية وقفت إزاء حالة جديدة " غريبة " للنظام السياسي العربي المستجد في المنطقة العربية في العقدين الماضيين ، لأن النظام السياسي العربي الحديث منذ بداية القرن الماضي حتى قُبيل حقبة الربيع العربي تجسَّد بمظهرين رئيسين ؛ الأول : تواجد (المستعمر الأجنبي) فيه على نحوٍ علني وصريح ومؤثر وفعَّال ، يقوم بإنشاء حكومات عربية محلية شكلية ضعيفة لا تمتلك زمام الأُمور ولا حق اتخاذ القرار السياسي ، وليس لها سوى الألقاب والبروتوكولات الشكلية ، واستمر هذا المظهر من مظاهر الأنظمة السياسية العربية منذ سقوط الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً . والمظهر الثاني : يُمثِّل قيام أنظمة حكم محلية عربية " تحررية " ذات طابع عسكري مناهض للاستعمار ، تحوَّلت فيما بعد لأنظمة حكم قمعية دكتاتورية شمولية ، تقدِّم خطاباً عربياً قومياً مناهضاً للغرب المستعمر واسرائيل ، وقامت تلك الأنظمة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً واستمرت حتى قُبيل حقبة الربيع العربي . وكانت الرواية العربية على مدار قرن من الزمن تقريباً تدور في فلك هذين المظهرين تصويراً ونقداً ، وكانت الأبعاد السياسية الرئيسة في الرواية العربية الحديثة تخوض في ثلاثة موضوعات رئيسة منبثقة من مظهري النظام السياسي العربي تتمثل في :

1- مقاومة الاستعمار وأعوانه ، ونجد ذلك مجسَّداً في عشرات الأعمال الروائية أهمها روايات نجيب محفوظ التاريخية (رادوبيس ، وعبث الأقدار ، وكفاح طيبة) .

2- القضية الفلسطينية ، وتجسَّدت تلك الثيمة أيضاً في أعمال روائية عربية كثيرة أبرزها (البحث عن وليد مسعود) لجبرا ابراهيم جبرا ، و (رجال في الشمس) لغسان كنفاني ، و(الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) لإميل حبيبي وغيرها من الأعمال الأخرى .

3- أزمة الحرية في البلدان العربية ومايتعلق بها كالقهر السياسي والقمع الفكري وأدب السجون وغيرها من المضامين ذات الصلة ، وأهم من جسَّد هذه الثيمات عبد الرحمن منيف في (مدن الملح ، وشرق المتوسط ، والآن هنا) ، وصنع الله ابراهيم في رواية (شرف) ، وعبد الرحمن مجيد الربيعي في (الوشم) وغيرها من الاعمال .[v]

أما النظام السياسي في مرحلة الربيع العربي فقد تغيَّر " نوعياً " على نحوٍ جذري عمَّا كان عليه سابقاً ، حيث أن اهم سمة تميِّزه عمَّا سبقه من الأنظمة السياسية (فقدان المعالم الواضحة بغية تصنيفه) ، فهو نظام زئبقي أو هلامي لا ملامح محددة ثابتة له ، وسبب ذلك يعود الى تعقُّد المشهد السياسي العربي وتأزُّمه ، وتعقُّد المواقف الإقليمية والدولية تجاهه مما أدَّى الى تعقُّد الوضع السياسي العربي لدرجة عدم إمكانية تصنيفه وتحديد معالمه .

فهو وضع متشظٍ في حيثياته ، مترامٍ في اطرافه ، مبعثر في رؤاه ، مضطرب غير مستقر ، ولاسيما في البلدان التي قامت فيها ثورات أو تبدَّلت فيها أنظمة الحكم الدكتاتورية أو اضطربت فيها الاوضاع السياسية كالعراق وسوريا وليبيا وتونس ومصر ولبنان واليمن .

فالنظام السياسي العربي الجديد – إذا ما نظرنا إليه نظرة عامة – نظام " ازدواجي " في معطياته ، وازدواجيته متنافرة في طرفيها . ففي بلد مثل العراق مثلاً ، نجد أن نظامه السياسي الجديد ديمقراطي كونه قائماً على الإنتخاب الحر ، وهو في الوقت ذاته دكتاتوري قمعي كون ديمقراطيته محصورة في مجموعة توجهات سياسية مؤدلجة . وهو – من وجهة نظرٍ ما - نظام وطني كون رموزه وقياداته لها تاريخ طويل في النظال والكفاح ضد الدكتاتوريات المستبدة ، وهو في الوقت نفسه – من وجهة نظر اخرى – نظام عميل وغير وطني كونه خاضعاً لأجندات إقليمية ودولية تفرض عليه ارادتها ولا إرادة له عليها . وهو نظام يحظى بقبول جماهيري كبير وله قاعدة جماهيرية مستعدة للتضحية من أجل بقائه ، وفي الوقت ذاته هو نظام مرفوض من قاعدة جماهيرية كبيرة مستعدة للتضحية من أجل الإطاحة به والثورة عليه . وهو نظام جلب معه مظاهر عديدة للحريات وجعل المجتمع الذي كان في عزلة تامة عن محيطه الإقليمي والعالمي بسبب الاستبداد السياسي ؛ منفتحاً بحرية تامة على العالم الخارجي ، وفي الوقت ذاته يرى الكثيرون أنه لم يجلب للمجتمع سوى الدمار والتخلف والمآسي وجعل من البلاد مستنقعاً للإرهاب والعنف .

أما قضية فلسطين التي تباكت عليها الأنظمة العربية وسيَّستها لقرن من الزمن ، فقد غدت فلسطين أفضل حالاً وأكثر استقراراً مقارنة بالدول العربية التي عصفت بها رياح الربيع العربي كسوريا واليمن ، وباتت القضية الفلسطينية ثانوية في المناخ السياسي العربي بعد أن كانت القضية الرئيسة الأُولى والأكثر أهمية فيه . فالأنظمة السياسية العربية بعد أن كانت متحدة في مواقفها الرسمية المُعادية لإسرائيل ، نجد بعضاً منها – اليوم – طبَّعت علاقاتها السياسية والاقتصادية معها على نحوٍ رسمي مثل دولة الامارات العربية المتحدة التي تعد اليوم قوة اقتصادية وسياسية فعَّالة ومؤثرة في المنطقة العربية والشرق الأوسط ، وكذلك مملكة البحرين ، وغيرها من الدول العربية الأُخرى التي تغيّرت مواقفها الحادة المعادية من إسرائيل الى مواقف محايدة ، فغدا العدو اللدود صديقاً ودوداً في ظل المستجدات السياسية والاقتصادية العالمية والإقليمية والمحلية .

ونجد كذلك بعض الدول العربية تفكَّك كيانها المُوحَّد ، أي تفكَّكت الدولة الوطنية الواحدة ، الى كيانات قومية ومذهبية ، لكلٍّ منها قوى سياسية متنافرة فيما بينها ومتضادة في مواقفها السياسية وتصوراتها الآيديولوجية وتحالفاتها الإقليمية والدولية .

أما الموقف السياسي العربي من الغرب ، فقد تغيَّر تماماً عمّا كان عليه في السابق ، فنجد تحالفات (عربية/غربية) ستراتيجية متنوعة ، وبات الوجود الغربي – سياسياً ، واقتصادياً ، وعسكرياً ، وثقافياً – أمراً طبيعياً ، بل ومرحَّباً به ولا استغناء عنه كما هو الحال في العراق ودول الخليخ ، وغدت التحالفات العربية مع القوى الإقليمية الاجنبية وتحديداً مع دولتي (ايران وتركيا) أمراً طبيعياً لا بُدَّ منه .

فنحن إذن إزاء وضع سياسي جديد مُعقَّد متأزم مُتداخل في معطياته وسياقاته ، وغدا التعبير عنه أو تجسيده وتقديمه في الخطابات التعبيرية - ولاسيما الخطاب الروائي - على نحوٍ موضوعي محايد أمراً عسيراً جداً ، لتداخل المواقف والتوجهات السياسية وتعقُّدها . ومن ثمَّ إنعكس تأثير هذا الوضع السياسي الجديد على نتاجات العقل العربي ولاسيما النتاجات الأدبية التي عملت بجدٍ كبير لمواكبة تلك المستجدات السياسية والتعبير عنها ، وكانت الرواية العربية المعاصرة أكثر الأجناس الأدبية تأثُّراً بالوضع السياسي العربي الجديد وتوغُّلاً في مضامينه ، ومن ثمَّ أصبحت " مُسيَّسة " رغماً عنها ، لأن سياق الحياة في المنطقة العربية بكل مجالاته وأصعدته غدا مسيَّساً على نحوٍ عام .

وبما أن الواقع العربي المعيش في العقدين الماضيين يؤكد أن النتائج التي أسفرت عنها ممارسات النظام السياسي العربي الجديد كانت سلبية وتبعاتها كانت وخيمة على المنطقة العربية ، لذا نجد الرواية العربية - في نماذجها المتميزة ولاسيما الروايات التي إنتهجت اسلوب المعارضة الروائية – كانت ذا طابعٍ سياسي نقدي مُعارض ، وهذه أهم خصائص تلك الأعمال الروائية على المستوى الموضوعي ، فأصبح كُتَّابُها بالنسبة لقرَّائهم

وجمهورهم ، مُرشدين معرفيين ونقَّاداً سياسيين عن طريق ما يُمررونه في نصوصهم من مواقف وتصورات .

والخوض في السياسة بإسلوب نقدي مُعارض محفوف بمخاطر عديدة ، منها ما هو فني ، فالروائي الذي يتطرق لمضامين سياسية مُطالب بأن يُقدِّم رواية فنية بالمقام الأول ،

فضلاً عن تقديمه لرؤية سياسية ، لأن الصياغة الفنية هي التي تُمارس دور إقناع المُتلقي بالرؤية السياسية التي يحويها العمل على نحوٍ هادئ مُقنع ، فمن دون (المعادل الموضوعي) - الذي يُمثِّل التعبير عن الوجدان في الفن على نحوٍ فني – قد يقع الروائي في تجاوزات فنية حين يسقط في المباشرة والخطابية الفجَّة[vi] . ومنها ماهو غير فني ؛ فالروائي الذي يخوض في السياسة على نحوٍ نقدي مُعارض للسلطة القائمة لا بُدَّ أن يأخذ بعين الحسبان أنه يُمرر في أعماله رؤى سياسية " غير بريئة أو غير نقية " ، وهو بذلك يخوض مغامرة غير مأمونة العواقب ، ولاسيما في ظل نظام سياسي متأزم مُعقَّد ، إذ تكثُر السلطات المُتحكمة المستبدة ذات الرؤية الأُحادية التي لاتقبل الإختلاف والإعتراض ، وقد ترى في عمله نوعاً من المعارضة الفكرية ، وقد يجر عليه ذلك مخاطر كثيرة تصل بعض الاحيان الى درجة التصفية الجسدية ، فثمَّة روائيون عرب في السنوات القليلة الماضية دفعوا حياتهم ثمناً لمواقف مناهضة للسلطات القائمة في مجتمعهم بسبب رؤى ومواقف قدَّموها في أعمالهم ، فالروائي العراقي (علاء مشذوب) أُغتيل عام 2019 على خلفية مضامين سياسية وآيديولوجية حوتها أعماله ، وهناك روائيون كُثر في تاريخ الرواية العربية تعرَّضوا للإرهاب والاضطهاد من السلطات السياسية القائمة في المنطقة العربية مثل طه حسين و نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وصنع الله ابراهيم ومؤخراً كمال داود واحمد سعداوي .

وما مرَّت به المنطقة العربية من أحداث ، لايقل شأناً عن الأحداث العالمية الكبرى كالحربين العالميتين والثورات الكبرى التي غيَّرت من طرائق تفكير الإنسان وأساليب تعبيره ومواقفه وتصوراته من الحياة والكون ، ولأن ذلك أثَّر على نحوٍ كبير في وجدان النخبة المميزة من الروائيين العرب ، فقد تشكَّلت لديهم مواقف وتصورات جديدة إزاء مايحدث في واقعهم المعيش ولاسيما فيما يتعلق بالوضع السياسي العربي وتبعاته السلبية على المنطقة ، لذلك بحثوا عن أفضل السُبُل الفنية التي تُمكِّنهم من تصوير واقعهم المعيش المستجد بكل أبعاده وتعقيداته على نحوٍ كبير من الموضوعية وبأبعاد إنسانية عالمية عميقة وبمعادل موضوعي فني ، ليرتقوا بأعمالهم لمستوى عالمي يتناسب مع مستوى المضامين التي عبَّروا عنها ، والتي كانت لها تأثيرات عالمية وإقليمية ومحلية كبيرة ، فوجدوا ضالتهم في اسلوب (المعارضة الروائية) لبعض الكلاسيات الروائية العالمية التي كانت ذا طابعٍ سياسي وأُنتجت في سياقات مقاربة من سياقات الواقع العربي في حقبة الربيع العربي ، فمعظم الكلاسيات الاوربية التي عارضتها النصوص الروائية العربية عبَّرت عن الإنسان الغربي في محنته وهو يعيش في عالمٍ جديد بُني على أنقاض عالمٍ سابق دمَّرته الحروب ، فتشظَّت كل الثوابت وأصبح البحث عن إجابات شافية لما حلَّ به من مآسٍ ضرورة مُلحَّة في كل الخطابات التعبيرية ولاسيما الرواية التي اتخذت طابعاً فلسفياً جديداً يقوم على إثارة تساؤلات كبيرة ، فأفادت الرواية العربية المعاصرة من تلك الكلاسيات وجعلت منها قاعدة تنطلق منها نحو آفاق وتصورات جديدة لتصوير مرحلة تاريخية فاصلة من تاريخ المنطقة العربية ، مرحلة " انتقالية " من وضع الى آخر مغاير تماماً ، ولتثير أسئلة كبيرة عن مصير المجتمعات العربية وكيفية استمرارها في المستقبل ، وما سُبُل الخلاص والاستقرار؟

فأصبح التراث الروائي العالمي مُتداولاً وحاضراً في الرواية العربية المعاصرة لتقارب السياقات بينهما ، وذلك ما سوَّغ تفاعل الرواية العربية وإفادتها من ذلك التراث العالمي في إنطلاقها نحو آفاق جديدة وتحولات موضوعية وتشكيل فني غير معهود .[vii]

وأهم المضامين السياسية التي أثَّرت في الروايات العربية التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية والتي استطاعت تلك الروايات التعبير عنها ، تتمثَّل فيما يأتي :

1 – تقديم صورة موضوعية للوضع السياسي العربي الذي قام على أنقاض الدكتاتوريات العربية السابقة ، فتصوير الواقع السياسي العربي الجديد ليس أمراً يسيراً ، لتباين وجهات النظر في مشروعية الأنظمة السياسية الجديدة ووطنيتها من عدمه ، وتأزُّم المشهد السياسي العربي وتعقُّده يجعل تصويره والتعبير عنه أمراً عسيراً من دون أساليب جديدة في السرد أهمها اسلوب (المعارضة الروائية) الذي وفَّر قدراً كبيراً من المساحة للتعبير عن مضامين سياسية حسَّاسة تمس سوء الوضع السياسي العربي وتأثيره على نحوٍ سلبي في البلدان العربية ، وهذا ما تجسَّد على نحوٍ واضح في روايتي (فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي ، و(المشطور) لضياء جبيلي اللَّتين جسَّدتا الواقع السياسي العراقي بكل محمولاته السلبية وإنعكاسها على الواقع العراقي في حقبة مابعد 2003 وما أسفر عن ذلك من مظاهر عنفٍ ودمار ومآسٍ .

ففي رواية (فرانكشتاين في بغداد) نلاحظ التركيز على شخصية (الشسمة) الإشكالية وسياقات خلقها وتكوينها وسلوكها ووظيفتها هو الذي جعل عديداً من المضامين السياسية الحسَّاسة تُمرَّر على نحوٍ سلس ومؤثر وغير لافت للنظر في الوقت عينه مثل الإقتتال الطائفي ، وسوء الإدارة الأمنية والسياسية للبلد ، وهدر المال العام وغير ذلك من المضامين . وكذلك التركيز في رواية المشطور على رحلة النصفين (ميزو) و(بوتاميا) ، وحواراتهما الساخرة العميقة ، والإشارات الكثيرة الى رواية (الفيسكونت المشطور) ومؤلفها (إيتالو كالفينو) كان سبباً رئيساً في تلقي ثيمة الإنقسام (السني

/ الشيعي) للمجتمع العراقي على نحوٍ طبيعي ، بالرغم من حسَّاسية ذلك الموضوع الذي يعد لحد الآن جُرحاً غير ملتئم لا يجوز المساس به علناً وعلى نحوٍ مباشر في الخطابات السياسية والاجتماعية والدينية في الوسط العراقي ، لكن اسلوب المعارضة الروائية يسَّر تلك المسألة وعن طريقه تم الخوض فيها على نحوٍ عميق وبسيط " السهل الممتنع " وبصياغة فنية قلَّلت من تأثير الزوايا الحادة للموضوع على المتلقي .

2- تقديم صورة للوضع السياسي العربي بكل مساؤئه وقُبحيَّاته بعد تحرر البلاد العربية من سلطة المستعمر الأجنبي ، وتعرية ذلك الوضع من الهالة الكاذبة التي صُنعت حوله وارتقت بمثاليته الى السماء ، ليوضع أمام مرآة حقيقية تُظهر كل ما يعتريه من مساوئ وعيوب ، وذلك عن طريق مساءلة القوى الوطنية التحررية العربية عمَّا وصلت إليه بلدانهم من سوء أوضاع على جميع المستويات على نحوٍ لا يقل عن السوء الذي كان متجسداً فيها في ظل سيطرة المستعمر الأجنبي . قالقتل بلا مُسوِّغ ، ومظاهر النهب والسلب ، والفقر ، ومظاهر التخلف والفساد ، والإنغلاق الثقافي والفكري ، لم تختفِ بعد التحرر" الوطني " من المستعمر ، بل بقيت كما هي وازدادت سوءاً ، لكنها اتخذت مظهراً جديداً في ظل حكم القوى الوطنية التحررية ، ولولا اسلوب المعارضة الروائية لما استطاع (كمال داود) في روايته (مُعارضة الغريب) أن يُمرر كل تلك المضامين على نحوٍ غير لافت للنظر ، لأن التركيز على الحوار الفكري بين رواية كمال داود ورواية (الغريب) لألبير كامو هو الذي وفَّر ممرات آمنة لتلك المضامين السياسية الحساسة .

3- كانت صورة (الآخر / الغربي) " المستعمر " متجسدة في الرواية العربية على نحوٍ سلبي في معظم الأحيان ، إلاّ أن رواية مهمة من الروايات العربية التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية استطاعت ان تكسر نمطية تلك الصورة السلبية ، وذلك عن طريق تبنِّي موقف سياسي جديد منبثق من الواقع العربي المعيش غي علاقته مع الغرب الأجنبي ، مفاده ان الغرب ليس شريراً على نحوٍ مطلق ، ففيه جانب خيِّر ذو طابع إنساني قائم على القيم النبيلة ، وفيه جانب شرير إنتهازي قائم على قيم الإستعمار وحب الهيمنة والتسلط على حقوق الآخرين واستعبادهم .

ففي رواية (حكاية العربي الأخير 2084) قدّم واسيني الأعرج رؤية سياسية جديدة غير معهودة في الخطاب الروائي العربي الحديث عن الآخر الغربي ، إذ جعل الوجود العربي مهم جداً عند الغرب / الأمريكي ، وقدَّم الإنسان العربي بموضوعية محايدة غير مؤدلجة من كل جوانبه السلبية والإيجابية ، فجعل منه صاحب قدرة علمية كبيرة وعقلية متنورة منفتحة على العالم ومتفاعلة معه ، فالشخصية الرئيسة عنده (آدم غريب) أُنموذج انساني إيجابي في قدراته العلمية والمعرفية ، وفي تفاعله مع العالم ودوره المهم فيه ، فهو عالم نووي أمريكي من أُصول عربية لا ينكرها بل متمسك بها ، ويملك رؤية إنسانية تجاه العالم ، وزوجته (أمايا) أمريكية من أُصول يابانية ، وصديقته في محنته عند إعتقاله (إيفا) مواطنة سويدية تربطه بها علاقة إنسانية متينة قائمة المودة والإحترام ، وصديقه الوفي المُقرَّب (سميث) عالم أمريكي في مجال الفيزياء النووية ، وشخصية (السير جون) مساعد رئيس قلعة (أميروبا) أُنموذج للرجل المهني النبيل الذي يُقدِّر الانسان المُقابل ويحترم خصوصياته ولايسمح بالتجاوز عليها من منطلق أخلاقي إنساني .

فنلاحظ الأُنموذج الغربي " الإيجابي " متجسّد في الرواية ولاسيما في تعامله الإنساني مع العرب والمنطقة العربية الذ ينبثق من قيم إنسانية قائمة على النُبُل والمحبة . وفي الوقت نفسه قدَّم أُنموذجاً سلبياً للفكر الغربي متمثِّلاً في شخصية (ليتل بروز) ومساعدَيه (سام ، وسيمسون) الذين مثَّلوا الجانب القبيح للغرب حيث النزعة الإستعمارية الإنتهازية .

وكذلك قدَّم واسيني جانباً آخر للعرب متمثلاً بالفكر الإرهابي المتوحش المجرم المنغلق ثقافياً وفكرياً ، الذي لم يأت من وراء أعماله سوى الدمار والخراب والقتل للمنطقة العربية ، هذا الأُنموذج السلبي تجسَّد في شجصية (سيف الكوربو) زعيم التنظيم الإرهابي في المنطقة العربية .

فهذه الرؤى السياسية تُحيل على نحوٍ غير مباشر الى بعد سياسي مفاده ؛ أن العرب والغرب ولاسيما الأمريكان امتزجا واختلطا على عدة أصعدة ، أهمها الصعيد السياسي ، ومن الصعب جداً – إن لم يكن مستحيلاً – الفصل بينهما ، فوجود الآخر / الغربي في المنطقة العربية غدا أمراً واقعاً لا بُدَّ منه ، وصورة العربي لم تعد إيجابية على نحوٍ مطلق كما عهدناها في الخطاب الروائي العربي ، وكذلك صورة الغربي لم تعد سلبية على نحوٍ مُطلق أيضاً . وهذه الحيادية والموضوعية في تقديم رؤى سياسية جديدة ومختلفة عمَّا عهدناه ، كان خاصِّية من خصائص الروايات العربية المعاصرة على مستوى المضمون ، والتي مكَّنها اسلوب المعارضة الروائية من تقديم مثل تلك الرؤى والتصورات والمواقف السياسية المستوحاة من الواقع السياسي العربي الجديد ، ولاسيما فيما يتعلق بعلاقة (الأنا / العربي) بـ (الآخر / الغربي) .

4- تقديم رؤية سوداوية عن مستقبل المنطقة العربية ، إنطلاقاً من الواقع السياسي العربي السيء ، وما سيسفر عن سياسات أنظمة الحكم العربية الهشة من نتائج وخيمة ستنعكس آثارها على المنطقة العربية مستقبلاً ، وهذا ما تجسَّد في روايتي (حكاية العربي الأخير 2084) لواسيني الأعرج

و (حارس سطح العالم) لبثينة العيسى ، ففي الرواية الأُولى ورد المقطع الآتي الذي تجسَّدت فيه تلك الرؤية السوداوية التنبؤية لما سيحل بالعرب ومناطقهم : **((نعم ، الدكتاتوريات نفَّذت ما كان عليها تنفيذه ، يوم صدَّقت أن لها دولة ، في أول هزَّة أُعيدت الى بدائيتها الأُولى ، نحن في عالم شديد الغرابة ، عندما قام الآرابيون بثورتهم كبقية الشعوب قتلوا أنفسهم أولاً ، وغرسوا السكاكين في اللحم الحي من أجسادهم ، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم ، وبعدهـــا خلقوا فراغاً ظنُّوه هــو الديمقراطية ، ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم مجموعات يقتلها العطش والصحارى والثعابين ، كالعمران الذي شُيِّد على الرمال وفي ثانية واحدة إنهار كل شيء))**[viii]

وفي المقطع الآتي أيضاً نجد الرؤية السوداوية ذاتها عن مستقبل المنطقة العربية تتجلى بوضوح : **((في آرابيا أيضاً حروب طاحنة مزَّقتها وقتلتها ، بدأت بتمزق محدود إثني أو قبلي أو عرقي أو لغوي ، قبل أن يتحوَّل الى حرب عبثية بلا نهاية ، داخل هيكل آرابيا هناك آرابيات شيعية وسُنِّية ، دروز وأرمن ، وأكراد وأمازيـغ ، لم يُعترف لهم بأي حق ، الباقي يقفون على أرض هشَّة .... لكن آرابيا لم تُمنح فرصة تأمُّل وضعها بسبب جنون حكامها وأطماعهم وإخفاقاتهم ، كلما زادت الحروب كثافة والفقر توغُّلاً أصبح التفكك سريعاً وكبيراً ومن الصعب التحكم به))** [ix]

وفي رواية (حارس سطح العالم) ورد المقطع الآتي الذي يصور المنطقة العربية - التي لم يبقَ منها سوى بعض الإشارات التاريخية - مستقبلاً في إحدى الهيئات الحكومية المهمة : **((الوطن العربي ، هو مصطلح جغرافي – سياسي يُطلق على منطقة ذات تاريـخ ولغة وثقافة مشتركة))**[x] ، فالمقطع السابق ورق في سياق روائي مُتخيَّل في أثناء إجراء اختبار وظيفي لوظيفة (رقيب كتب) في حقبة مستقبلية ستغدو فيها القراءة والمعرفة والتفكير جرائم خطيرة ، فالمقطع السابق سيكون " مُخالفاً " للائحة الانظمة والقوانين لأن يعد من **((تاريخ المنطقة القديم))** ، وفكرة " تجريم المعرفة والقراءة " في الرواية فيها مُعارضة للفكرة ذاتها في رواية (451فهرنهايت) لراي براد بيري ، وهذه الفكرة ذات أصل سياسي عند بثينة العيسى ، لأن بعض رواياتها مُنعت من النشر في بلدها (الكويت) لأسباب سياسية ، لأن سياسة النشر المتبعة هناك تقتضي أن يمر النتاج الادبي تحت مجهر الرقيب أولاً ، ومن ثم هو الذي يُقرر السماح بنشر العمل من عدمه أو يفرض عليه بعض التعديلات على نحوٍ قسري لا منطق فيه[xi] .

وفكرة (تجريم المعرفة) فكرة قديمة جداً ، تعود الى حقبة الآلهة والأساطير اليونانية القديمة ، إذ قام (بروميثيوس) بسرقة النار التي كانت سرَّاً كبيراً من أسرار المعرفة والقوة من الآلهة وأعطاها للبشر الضعفاء ليستغلوها في الكشف عن العلوم والمعادن وصناعة الأسلحة وتسيير حياتهم والحفاظ عليها ، فعُوقب عقاباً شديداً من الآله (زيوس) بتقييده بصخرة كبيرة والإتيان بنسر جارح كبير لينهش كل يوم من كبده [xii] ، لذلك تكون قضية المعرفة والتفكير ذات أبعاد سياسية تنتهي بالباحث عنها الى مآلات وخيمة ، كونها تربط بين ثلاثة أطراف ، الجهة المتسلطة ، والباحث عن المعرفة ، وعامة الناس ، وتنتهي بأن تسخط الجهة المتسلطة على الباحث عن المعرفة والساعي للحصول عليها وتعاقبه أشد أنواع العقاب ، كونه يسعى الى توعية الناس وتحريرهم من الضعف .

فعن طريق أُسلوب المعارضة الروائية قُدِّمت تلك الرؤية المستقبلية السوداوية عن المنطقة العربية في ظل الإخفاقات الكبيرة للأنظمة السياسية العربية الحاكمة ولاسيما قبيل حقبة الربيع العربي وما تلاها .

5- الواقع السياسي العربي داخلياً وإقليمياً : في بعض البلدان العربية التي لم تشهد استقراراً سياسياً وأمنياً مثل العراق منذ عام 2003 وحتى الآن ، يكون من الخطير جداً تسليط الضوء على قضايا سياسية داخلية وإقليمية حساسة ، لذا نجد أن روائي مثل (ضياء جبيلي) – لتسويـغ كثير من مثل تلك المضامين – قد يلجأ لأُسلوب المعارضة الروائية على نحوٍ فانتازي تهكُّمي ساخر للتقليل من حدة ما يتطرق إليه من قضايا سياسية وآيديولوجية حساسة ، فـ (إيتالو كالفينو) ركَّز في روايته (الفيسكونت المشطور) على الصراع الأزلي بين الخير والشر ، وأنَّ لا غنى للوجود عن أحدهما ، فضياء جبيلي أفاد من فكرة (الإنشطار) وعارضها ولكن على نحوٍ آخر ، فقدَّم عن طريقها قضية إنشطار المجتمع العراقي الى نصفين (سني ، وشيعي) يسعيان على

نحوٍ حثيث لإيجاد طريقة للإلتحام لكنهما لم يفلحا في ذلك ، فالنصفان (ميزو ، وبوتاميا) اللذان يرمزان لنصفي المجتمع العراقي نجدهما على طول الرواية يتساءلان عن (أناهما) المركزية قبل إنشطارهما ، ويسعيان سعياً كبيراً للإلتحام مجدداً ، لكن عودتهما الى وجودهما السابق تغدو أمراً مستحيلاً .

فالتطرق لمثل هذه القضية الآيديولوجية السياسية الحساسة على نحوٍ مباشر في بلد مثل العراق يعد أمراً خطيراً في ظل الواقع السياسي والآيديولوجي والاجتماعي المحتقن والمتأزم ، ويعد أيضاً " ضربة " فكرية موجَّهة للجهات الداخلية والإقليمية التي عملت وتعمل بإستمرار على شطر المجتمعات العربية سياسياً وآيديولوجياً بما يخدم مصالحها الخاصة .

وفي الرواية ذاتها – رواية المشطور – نجد إشارات صريحة وجريئة للدور السلبي الذي قامت به دول الجوار الإقليمية

تجاه النصفين العراقيين ، ويعد ذلك من المضامين السياسية المستجدة في الرواية العربية ، فقبل حقبة الربيع العربي كانت الدعوة الى الوحدة العربية والتحرر من المستعمر ومقاومة الدكتاتوريات هي الموضوعات السياسية المهيمنة على الخطاب السياسي في الرواية العربية ، أما أن تُقدَّم مضامين سياسية واقعية مستجدة بأُسلوب فني جديد تتطرق للدور السلبي " المؤذي" التي تؤديه دول الجوار الإقليمية ولاسيما العربية منها تجاه بلد عربي " شقيق" فذلك طرح مستجد فرضه الواقع السياسي الداخلي والإقليمي المعيش بتأزماته وتقاطعاته .

ففي الرواية تُشطر الشخصية الرئيسة - التي ترمز للعراق - الى نصفين بفعل الإرهاب الديني المؤدلج المتواجد على الحدود العراقية السورية . وعن طريق دولة تركيا تدخل الاعضاء الجنسية الاصطناعية الى العراق عن طريق إقليم كردستان ، وفي ذلك رمزية عن الفساد الأخلاقي الذي تعمل تركيا على تصديره للعراق بتواطؤ داخلي . ودولة إيران تُصدِّر له " المواد المُخدِّرة " عن طريق التهريب المُنظَّم . ودولة الكويت تصدر له الأثاث المنزلي المستعمل الذي تتخلله عمليات تهريب للعمالة الأجنبية وكأن العراق غدا مكبَّاً لنفاياتها . أما السعودية فتصدِّر له الإرهاب المؤدلج دينياً لتدميره وقتل أبنائه . والجميع يستغل تواطؤ أجهزة الأمن الحدودية في الجانب العراقي وضعفها وعدم ولائها للعراق ، واستغلال سوء الوضع السياسي والأمني وإنفلاته ، فيغدو الجميع ينفر من النصفين العراقيين المشطورين ويهين ضعفهما .

فهذه المضامين الحسَّاسة لا تستطيع أيَّاً من الخطابات التعبيرية تمريرها والخوض فيها إلاّ الرواية العربية المعاصرة التي ابتكرت اسلوب المعارضة الروائية لتتمكن من تمرير تلك المضامين وتُقدِّمها بقالب فني شيِّق ممتع يُقلل من حدة حساسيتها وخطورة الخوض فيها ، ولاسيما في ظل واقع سياسي وفكري مؤدلج محتقن لأقصى حدٍّ ممكن .

ويقول جبيلي بهذا الصدد **((هناك احداث وثيمات كبرى سيكون من التقليدي جداً الإشتغال عليها بواقعية من دون اللجوء الى دعمها بكل ماهو غرائبي وفنتازي ، أنا أستعمل الوثيقة [النص الروائي الأجنبي] لا بوصفها شاهداً أو كاشفاً ، إنما كذريعة لقول ما لا يمكن التطرق إليه في حال كان السرد مباشراً ولا يحتوي على وسيلة إيصال مناسبة))**[xiii]

ويمكننا أن نُنشئ علاقة بين روايات (فرانكشتاين في بغداد ، والمشطور ، ومعارضة الغريب) من جهة ، وروايتي (حكاية العربي الاخير 2084 ، وحارس سطح العالم) من جهة أُخرى ، من حيث تأثير الوضع السياسي العربي في مضامينها والمواقف والرؤى السياسية التي تجسَّدت فيها ، فالمجموعة الأُولى من الروايات قدَّمت رؤية عامة عن سوء الأنظمة السياسية القائمة في إدارة المنطقة العربية والسير بها نحو المجهول الذي لا يُحمد عقباه، أما المجموعة الثانية فقدَّمت رؤية سياسية مستقبلية سوداوية للتنبؤ بذلك المجهول المخيف الذي تسير نحوه المنطقة العربية وتصويره ، وكأن الرؤية الأُولى قراءة واقعية للأوضاع السياسية والاجتماعية المُتردية المعيشة في العالم العربي في حقبة الربيع العربي ، والرؤية الثانية قراءة تنبُّؤية لمستقبل هذا الواقع المُتردِّي ، فنلاحظ أن هذه الروايات كانت بمثابة الجسور المعرفية التي امتدت ما بين الأدب والسياسة ليتداخلا وليفيد أحدهما من الآخر .

المبحث الثاني : الأسباب الإجتماعية

العلاقة بين الأدب والمجتمع قديمة جداً ، وذو وشائج قوية ، فعناصر الأدب (المبدع ، والنص ، والقارئ) كلها فواعل اجتماعية ، والنسق العام الذي يحتضنهم هو المجتمع بفعالياته وأنساقه ومتغيراته وظواهره وطبيعته التكوينية ، والعلاقة بينهما وصلت الى درجة من التداخل أنَّه ظهر فرع من فروع علم الإجتماع يهتم بدراسة الظاهرة الأدبية سُمِّي بـ (علم اجتماع الأدب) أو (سوسيولوجيا الأدب) الذي يهتم بالأدب بوصفه ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر الاجتماعية الأُخرى ، وينظر الى أركان العملية الإبداعية الثلاثة من زاوية نظر إجتماعية ، وعُد ذلك محاولة لفهم العلاقة بين الأدب والسياقات الاجتماعية التي ينشأ فيها ، وفي ذلك فائدة لدراسة الأدب من جهة وفهم المجتمع من جهة أُخرى ، وبيان مدى تأثير أحدهما في الآخر .[xiv]

فالتغيُّرات الإجتماعية تفرض تغيُّراً في الرؤية والتصورات والمفاهيم والمواقف الفكرية للإنسان وأساليبه التعبيرية عن تلك المتغيِّرات ، ولاسيما في الأدب ، وتحديداً في الرواية ، كونها الشكل الأدبي الذي يُخاطِب به مجتمعٍ ما نفسه ، ويعدها بعض الباحثين تجسيداً لروح المجتمع ومايدور فيه من أحداث ووقائع وتغيُّرات ،

وتوجد كثير من الدراسات المعرفية أُجريت على ضوء أعمال روائية كأعمال نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف والطيب صالح ، ولعلَّ ما قدَّمه (روجر آلن)[xv] و(حليم بركات) نماذج من ذلك الإتجاه .

وقد تصبح الرواية منجماً عميقاً للتوغل في اكتشاف جوانب من حياة الإنسان بوصفه كائناً إجتماعياً ، وقد سار في ذلك التوجُّه باختين وغولدمان وغيرهم آخرون ، وقد يرى بعض الدارسين أن الروائيين في الواقع دارِسو علم الإجتماع ، كونهم يقدمون نصوصاً معرفية سوسيولوجية ، الغرض منها تقديم صورة قريبة من الحقيقة للحياة المعيشة ، فتغدو نصوصهم الإبداعية عبارة عن دراسات اجتماعية أخذت شكل جنس أدبي .[xvi]

وإذا نظرنا الى نتاج مجموعة من الكُتَّاب الروائيين في مجتمعٍ ما وفي سياق تاريخي وثقافي مُعيَّن ، وأجرينا تحليلاً لمضامين أعمالهم ، سنلاحظ في نهاية الأمر أنهم أكثر كشفاً وتحليلاً وتأثُّراً بالظواهر الإجتماعية المحيطة بهم من غيرهم ، وسيتبين أنهم جسَّدوا صورة تقريبية لمجمل سياقات البيئة التي يعيشون فيها .[xvii]

فلو نظرنا نظرة عامة الى الروايات العربية المعاصرة التي تجسدت فيها ظاهرة المعارضة الروائية وتجاوزنا التفاصيل الدقيقة التي تُميِّزها عن بعض ، لأستطعنا أن نفهم الواقع العربي المعيش ، ولتبيَّنت لنا مظاهره السلبية على مختلف المستويات ولاسيما المستوى الاجتماعي ، ولأستطعنا أن نفهم ظواهره وخصائصه المستجدة على مستوى الأفراد والجماعات .

وقد خاض عشرات الفلاسفة والنقاد والباحثين في علاقة المجتمع بالأدب وتأثيره فيه منذ أفلاطون وأرسطو مروراً بما ورد في الموروث النقدي العربي القديم ولاسيما عند إبن خلدون ، ثم حديثاً عند الغرب إبتداءً بالمفكر الإيطالي (جياما تيستافيكو 1744م) ، ومن بعده المدام (دو ستايل) ، ثم هيبوليت تين وسانت بيف وهيجل وإنجلز وفلاديمير لينين وبليخانوف ، ثم المحطة الأهم في دراسة الأدب من وجهة نظر إجتماعية متمثلة بـ(النقد الماركسي) عند جورج لوكاتش ثم باختين ثم غولدمان ثم جاك لينهارت ثم روبير إسكاربيت ثم بيير زيما ، وعربياً يعد ما قدَّمه من رؤى وتصورات عن علاقة الأدب بالمجتمع كلٌّ من طه حسين ومحمد مندور ومحمد غنيمي هلال وعز الدين اسماعيل وغيرهم ذا أهمية كبيرة في ذلك المجال . وقد أسفرت تلك المنظومة من الدراسات عن نشوء عديد من الطروحات النقدية مثل نظرية المحاكاة ونظرية التعبير ونظرية الخلق ونظرية الإنعكاس والفن للفن والفن للحياة ، فضلاً عن ظهور تيارات فكرية وتوجهات إجرائية تحليلية مثل تيار المادية الجدلية وعلماء الإجتماع الألمان ومدرسة فرانكفورت .[*]

وما يعنينا من كل ذلك هو أن نُبيِّن تأثير الظواهر والمتغيرات الإجتماعية التي طرأت على الواقع العربي المعاصر في السنوات القليلة الماضية وإنعكاسها على الخطاب الروائي العربي ، ومن ثمَّ تأثيرها في نشوء عديد من الظواهر الفنية فيه ولاسيما ظاهرة (المعارضة الروائية) .

أن معطيات الواقع العربي – كما بيَّنَّا – أنتجت واقعاً سياسياً متردياً متمثلاً بنظام سياسي عربي لم تشهد المنطقة العربية مثيله من قبل ، وهذا الواقع السياسي ألقى بظلاله على المجتمعات العربية التي عصف بها إعصار الربيع العربي ، ومن ثمَّ أسفر عن واقع إجتماعي أكثر سوء قائمٌ على " الظواهر المعتلة " وهي الظواهر الإجتماعية التي يجب أن تكون على نحوٍ مغاير لما هي عليه في الواقع المعيش ، وهي تنبع من ضمير جماعي مضطرب مختل ذي قيم تحوَّلت – رغماً عنها – بفعل المعطيات الإجتماعية القاسية الى قيم غير سوية .[xviii]

غدت الرواية العربية المعاصرة أكثر الأجناس التعبيرية قدرةً على تجسيد الواقع العربي والتفاعل معه وفهمه وتفسيره ، ولاسيما بعد أن طوَّرت من أدواتها واستحدثت أساليب فنية جديدة ، فالإحساس بضرورة التجديد يعني على نحوٍ ما إحساس الأديب بضرورة تجديد أدواته ووسائله التي تُمكِّنه وتزيد من قدرته على التعبير عن علاقة الإنسان بواقعه الإجتماعي المُتغيِّر المستجد .[xix]

ومن هنا كانت المعارضة الروائية إحدى تلك الوسائل الفنية التي أسهم الواقع العربي الإجتماعي في تشكُّلها وظهورها كونها توفِّر مدى واسعاً للروائي العربي وتفتح أمامه آفاقاً رحبة للتعبير عن أكبر قدر ممكن من المضامين والدلالات الإجتماعية الحسَّاسة المستجدة في المجتمعات العربية بعد حقبة الربيع العربي .

فهي التي فتحت الباب على مصراعيه أمام واسيني الأعرج في روايته (حكاية العربي الأخير 2084) للتعبير عن تفسُّخ البُنى والأنظمة الإجتماعية العربية وإنهيارها ، والتنبؤ برجوعها الى مراحلها البدائية حيث سيادة الفقر والجهل والتخلف والموت والتشتت والتيه في الصحراء بحثاً عن مصادر الحياة من الطعام والماء ، وما سيجلبه الإرهاب المؤدلج دينياً على المنطقة العربية من مآس وأهوال ، ليرسم لنا صورة نظام إجتماعي جديد مخيف يفترضه للعرب مستقبلاً ، وفي هذا المقطع الوارد على لسان الشخصية الرئيسة تجسيداً لهذه الرؤية السوداوية عن المنطقة العربية في المستقبل : **((ما رأيته شيء خرافي ، كيف يقاوم الناس من أجل عيشهم اليومي القاسي، وكيف أن سكَّان آرابيا أصبحوا داخل تيهٍ شديد القسوة . خسروا كل شيء ، حتى النظام الأدني الذي كوَّنوه على مدى قرون . ينقرضون بهدوء وسكينة ، لم يعودوا سادة مصائرهم ، وكل شيء يتمزق حول السد وفي الخلاء . التقينا مع ناس طيِّبين وعاليي الثقافة والوعي ، الكثير منهم كانوا مهندسين ومفكرين وأصبحوا اليوم هائمين في الصحاري . تفكُّك آرابيا دمَّر كل التوازن المجتمعي في المنطقة))**[xx]

فنلاحظ أن المعارضة الروائية فسحت المجال أمام واسيني ليخوض في مثل هذه المضامين الحسَّاسة على نحوٍ منطقي مقبول على المستوى الفني والموضوعي ويجعل عمله بمثابة صرخة في وجه المجتمعات العربية ، في وقت ترى بعض أنظمة الدول العربية ولاسيما في منطقة الخليج أنها ضمنت المستقبل الزاهر لمجتمعاتها .

فالرواية التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية غدت تعبيراً فنياً عميقاً عن حِدَّة الأزمات المصيرية التي تواجه المجتمعات العربية وتمضي بها نحو التشتت والتلاشي ، في ظل تشظي المنطق المألوف وإنهيار القيم والثوابت والمبادئ الاجتماعية وقيام أُخرى جديدة سلبية ، فكانت الحاجة ماسَّة لفعل إبداعي يُعيد النظر في كل شيء ويُسائله ، لتقديم قراءة جديدة لمشكلات العصر بوعي جمالي جديد ، وهذا ما جعل المجتمع العربي – الذي يعيش في حداثة وما بعد حداثة " هجينة " بين سياق اجتماعي متدهور وإبداع أدبي منبثق من حداثــة " أفراد " وليس كظاهرة إجتماعية – يُلقي على الروائي المُتميز مهام ومسؤوليات أكثر مما يستطيع تحمُّله فنَّه الروائي ، فيطالبه بإعادة خلق للواقع المعيش المتأزم ، على نحوٍ بسيط ، ومن ثمَّ نجده – الروائي - يُمارس دور المؤرخ والسوسيولوجي والمُفكّر وعالم النفس والفنان في آن واحد ، فأخذ يحتل مكانة رفيعة في المجتمعات العربية كانت لقرون حكراً على الشعراء ، لأن الكتابة الروائية أصبحت لها القدرة على تنظيم العلاقات الإجتماعية وتقديمها على نحوٍ غير تقليدي ، وعن طريقها تم تصوير ظواهر المجتمع السلبية المستجدة وقُبحيّاته وتشظي قيمه على نحوٍ يحمل قدراً كبيراً من الحقيقة في إطارٍ فني ، لذلك نجد أن تلك الأعمال الروائية لاقت نجاحاً كبيراً محلياً وعالمياً .[xxi]

فنجد الرواية العربية المعاصرة – في علاقتها بالواقع الإجتماعي العربي المعيش – تُمارس نوعاً من " الكتابة الإشكالية " ، حيث أنها تضع الواقع موضع بحث دقيق وتساؤل ، فأصبح كتَّابها المتميِّزون يفهمون معطيات الواقع ومشكلاته فهماً عميقاً ويُعبِّروا عنه ويحاولوا تفسيره لقارئ يُفترض به أن يكون قد فهمه وإستوعبه على نحوٍ أقل مما فهموه ، بمعنى أنهم أصبحوا يتحدثون عنه لأنهم يعرفون عنه أكثر مما سواهم .[xxii]

فالروايات التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية كانت ازدواجية في تعاملها مع الواقع الإجتماعي العربي المرير ، فكانت تقترب منه لحد التماهي في بعض الأحيان ، وتُفارقه في الوقت نفسه بـ(التخييل الفني) أو (خيالية الحقائق الواقعية) ، فأصبحت السوسيولوجيا مجرد صورة مُقدَّمة وليست كما هي في الواقع الحقيقي بقوانينها المألوفة المعيشة ، بل إنها صورة أُخرى توجد في فكر المؤلف ، فتعاملت تلك الروايات مع عوالمها المُتخيَّلة المُفترضة إنطلاقاً من نسخة الواقع " الأصلية " ، وعملت على إعادة إنتاج قوانين ذلك الواقع من أجل خلق نسخة واقعية مُصطنعة بوسائل فنية متعددة ؛ نسخة يقلل القالب الفني من هول ما تحمله من مآسٍ .[xxiii]

وعن طريق " الواقعية الإفتراضية " أي الواقع السائد المُقنَّن الرتيب ، يصبح مدخلاً لعالمٍ خيالي مُغاير في قوانينه ، ينتقل بالواقع الى ما فوق الواقع ، فنجد الروايات العربية ما بعد الحداثية ولاسيما التي انتهجت اسلوب المعارضة تسعى الى تجسيد الواقع العربي وتفر منه في الوقت ذاته ، لما يحويه من مآسٍ وأهوال فاقت كل خيال ، لذا نجد أحمد سعداوي وضياء جبيلي إنتهجا أُسلوب الغرائبية والعجائبية في تقديمهما للواقع الإجتماعي

العراقي ، ونجد بثينة العيسى وواسيني الأعرج إتَّجها نحو المستقبل ، تأثُّراً بالواقع المعيش وتفادياً من الخوض فيه على نحوٍ مباشر في الوقت نفسه ، فقد تخطَّت هذه الأعمال ((**مهمة إدراك العالم وتحليله بحثاً عن التغيير ، وراحت تعي الأمر بأُسلوب مُغاير ؛ حيث البحث عن وسائل تصويرية جديدة عن طريق محاولات تصنيع مواقف سردية مُتخيَّلة تنطلق من الوهم لكنها لا تُفرق الواقع ولو ضمنياً ، بحثاً عن الإفتراضات المقترحة جميعاً في الحياة الصناعية المنتجة نمطاً خاصاً من المجتمعات المتفاعلة مع متاهات ما بعد الحداثة للوصول الى الأُنموذج الإبداعي المنشود**))[xxiv] ، وبهذا الصدد تقول الروائية بثينة العيسى : ((**إنني دائماً ما أنظر الى الواقع على إنه مُعلّم الكتابة الأول ، فنحن كُلُّنا نتغنى بالمخيلة ونعوّل عليها ، ولكن – ومن خلال تجربتي الشخصية – لابُد أن يكون الواقع شرارة الإنطلاقة ، بدليل أن كل أعمال الدستوبيا هي أعمال شديدة الواقعية ، حتى لو كانت مُتخيَّلة وتقع أحداثها في زمن إفتراضي ومكان لانعرفه ، فروايـة جورج اورويل (1984) أو رواية (451 فهرنهايت) لراي براد بيري ، وكل أعمال الفانتازيا ، نستطيع أن نتوصل عن طريقها الى طبيعة الواقع والحقبة التي استُلهِمت منها ، والرواية في الوقت ذاته ليست توثيقاً للواقع ، لكنها تنطلق إليه .... وهي التي تجعلنا نراه على نحوٍ مختلف وتستطيع إعادة تشكيله**))[xxv]

فالمستجدات الإجتماعية في الواقع العربي المعاصر ، وكثرة المظاهر الإجتماعية السلبية ، ورغبة النخبة الروائية العربية المتميزة في التعبير عن أكبر قدر ممكن منها وتسليط الضوء عليها وتحذير المجتمعات العربية من عواقبها وتبعاتها الخطيرة ، من منطلق مسؤوليتهم الأخلاقية والمعرفية كونهم مثقفين وِهبوا مَلَكة عقلية مميزة لتقديم رسالة أو تجسيد موقف للمجتمع أو نيابة عنه ، عن طريق مناقشة أسئلة مُحرجة وطرحها ومجابهة المعتقدات التقليدية والعقائدية ، وعدم قدرة المؤسسات القائمة على استيعابهم لموقفهم الرافض من الإنتهاكات المتعمَّدة أو الناجمة عن الإهمال والظلم الذي يُمارس في مجتمعاتهم[xxvi] .

فصوَّروا على نحوٍ جريء المجتمعات العربية بكل ما يحويها من مظاهر سلبية ، وأثاروا أسئلة جريئة ، وتغلغلوا الى أعماق الواقع الإجتماعي حيث المسكوت عنه في الخطابات

الرسمية وشبه الرسمية ، ليقدموا رؤية شاملة وقريبة من الحقيقة للمشهد الإجتماعي العربي ، وليرتقوا برؤاهم ويوصلوا رسالتهم الى العالم من منطلق إنساني ، لأن العالم ولاسيما الغرب كان موقفه سلبياً مما مرَّت به من المنطقة العربية في حقبة الربيع العربي ، لذلك كانت تجاربهم – التي تجاوزت المحظور- بحاجة الى اسلوب من أساليب التمويه والجذب التي تُغلِّف الواقعي القبيح بالفني الجميل ، فكان أُسلوب (المعارضة الروائية) نافذة عرضوا عن طريقها الواقع العربي ولاسيما أبعاده ومضامينه الإجتماعية .

وعن طريق رؤية سوسيوأدبية نلاحظ أن الروايات العربية التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية قدَّمت مضامين اجتماعية جديدة وكشفت عن أُخرى كانت مُضمرة ، لكن الربيع العربي أخرجها للعلن ، فأهم المضامين الإجتماعية التي جسَّدتها تلك الروايات والتي أثَّرت في تبنيها لإسلوب المعارضة الروائية تتمثَّل فيما يأتي :

1 – أكَّدت هذه الروايات على ان ظاهرة العنف أصبحت نسقاً ثقافياً واجتماعياً متجذِّراً في المنظومة الاجتماعية العربية على مستوى الأفراد أو الأُسرة أو الجماعات أو المجتمع على نحوٍ عام ، ولاسيما في البلدان التي هبَّت عليها رياح الربيع العربي ، فكشفت عن العنف غطاءه وصعد من القاع الى السطح ، فـ (القتل) الذي يُمثِّل أعلى درجات العُنف غدا أمراً طبيعياً في تلك المجتمعات العربية ، سواء كان مصدره الإرهاب أم الحروب أم الإقتتال الطائفي أم الجريمة أم قمعيَّة أنظمة الحكم والجهات المتسلطة ، وكأن روح الإنسان أصبحت بلا قيمة ، وحتَّى تلقي تلك المضامين العنيفة من القرَّاء لم يُسبب لهم الدهشة كونهم سبق وإن عاشوها وخاضوا غمارها على نحوٍ حقيقي قبل أن يعيشوا تجربة رؤيتها بقالب روائي أدبي .

ويقول (احمد سعداوي) بصدد مظاهر العنف في المجتمع العراقي التي جسَّدها في روايته (فرانكشتاين في بغداد) : **((كل عراقي عاش وعايش الإحتراب الأهلي وأعمال العنف – ونحن جميعاً نميل الى الإدِّعاء بأننا أبرياء ليس لدينا مساهمة فيما يجري – كُلُّنا مساهمون بنسبة أو بأُخرى ، مادياً أو معنوياً ، أو نفسياً في العُنف بالرضى عن أعمال عنف معيَّنة أة ألاَّ نمنعها أو أن نسمح للجريمة أن تقع ، بذلك نكون جميعنا مساهمين في القتل الذي يقوم به شخص أو شخصان))** [xxvii] فنلاحظ أن سعداوي يُؤكد فكرة العُنف المجتمعي الذي لايستثني منه أحداً في المجتمع العراقي ، وذلك العنف – من وجهة نظرنا - هو الذي كان سبباً رئيساً من عدة أسباب في إختياره لأُسلوب المعارضة الروائية لنص كلاسي أجنبي مليء بالعنف والقتل (فرانكشتاين) ماري شيلي ، ومن ثم أسقطه على الواقع العراقي الذي قدَّمه على نحوٍ قارب فيه الحقيقة المعيشة لحدٍ كبير .

2- صعود نزعة الجهل وإنحدار نزعة الوعي والمعرفة في العالم العربي ، فلو دققنا النظر في الروايات العربية الخمس التي نحن بصدد دراسة ظاهرة المعارضة الروائية فيها ، لوجدنا هذه الثيمة من الثيمات الإجتماعية المشتركة فيها ، حيث أن الجهل أصبح القوة السائدة المهيمنة على العقل العربي الجمعي ، وإنحصرت المعرفة على نطاق ضيق جداً ، إذ لا تتجسَّد إلاَّ في أفراد قليلين خارجين عن النسق العام ، وستكون عواقب هذه النزعة الإجتماعية السلبية وخيمة على المجتمعات العربية في حاضرها ومستقبلها ،حيث ستغدو ثقافة الجهل هي الأصل ، وتصبح المعرفة والوعي جريمة ، وهذا المضمون تجسَّد على نحوٍ واضح في كل الروايات ولاسيما في (حارس سطح العالم) لبثينة العيسى ، التي قالت بصدد هذه الظاهرة الإجتماعية السلبية التي كانت الأساس الذي بَنَت عليه روايتها التي انتهجت فيها اسلوب المعارضة الروائية : **((ما يجعل الإنسان العربي يستغني عن الكتاب ، وعليه يصبح خيار الفرد بعدم القراءة مقلقاً بالنسبة لي ، لأنه يتخلى عن الوريد الأكبر من موارد المعرفة ، الذي – حتى الآن – لا يمكننا استبداله بأي شيء))** [xxviii] ، وهذا الموقف لبثينة العيسى من المعرفة الناجمة عن القراءة أكَّدته في مواضع كثيرة من روايتها ، إذ ورد في الرواية : **((ترى سياسة الهيئة أن المفتش [مفتش الكتب المعرفية والفكرية] مُعرَّض للخطر أكثر من الرقيب ، لإضطراره للتعامل المباشر مع الورَّاقين والكُتَبيين ومُهربي الكتب وقراصنة النشر والقرَّاء ، وهؤلاء كما يُشاع كائنات شرسة وغير مطواعة ، لا تحترم القانون ، ولا سيما إذا كان أحدهم ينتسب الى تلك الخلايا السرطانية التي تُسمَّى أيضاً المعارضة ، يُقال إن دماء سلالات المثقفين في العالم القديم تجري في عروقهم ، وأنهم فلول الحضارة البائدة ، وأعداء المستقبل))** [xxix]

3- إنهيار القيم الإنسانية في المجتمعات العربية ، جسَّدت الروايات التي انتهجت اسلوب المعارضة الروائية هذه الثيمة التي استلهمتها من الواقع الإجتماعي العربي المعيش ، فالقيم الإجتماعية والدينية والأُسرية والأخلاقية كالأمانة والإحترام والصدق والمحبة والوفاء والتضحية والشعور بالمسؤولية وغير ذلك من القيم النبيلة ، إنهارت في المنظومة الإجتماعية العربية بحسب التصور السوسيولوجي الذي قدَّمته تلك الروايات ، وحلَّت مكانها قيمٌ مضادة ، فالأواصر الأُسرية تفككت ، والقيم الإجتماعية التي طالما أسهمت في ضبط سلوك الفرد العربي في علاقته بمحيطه تلاشت ، والرادع الديني والأخلاقي – بمفهومهما الإيجابي – أصبحا غطاءً لتمرير قباحات السلوك والفكر الإنساني وتسويغهما ، وبالنتيجة نجد المجتمعات العربية – بحسب الصورة التي رسمته له تلك الروايات – تعيش في حالة إنهيار قيمي وأخلاقي بكل طبقاتها

وفئاتها الإجتماعية . فالشخصيات الرئيسة في الروايات الخمس التي مثَّلت الإنسان العربي بمختلف تجلياته ومستوياته الإجتماعية ، معظمها كان يخوض شروطه الحياتية في سياق ذلك الإنهيار القيمي ، ومن لم يكن منها منهاراً قيمياً فإنه خضع في النهاية لقوة ذلك السياق الذي أُقحم فيه وانتهى به المطاف نهاية سلبية ، فهذه الرؤية السلبية الصادمة عن الوضع الإجتماعي العربي جاءت بفعل التحولات الإجتماعية الكبيرة " السلبية " في حقبة الربيع العربي والتي إنعكست آثارها على سلوك الفرد العربي ونمط تفكيره ، وقد تم تمريرها للقارئ العربي عن طريق أُسلوب المعارضة الروائية الذي خفف لحدٍ ما من وطأة الصدمة لتلقي تلك المضامين السلبية التي تضمنتها تلك الاعمال .

4- تقويض البُنى الإجتماعية في البلدان العربية وتركيبها من جديد على نحوٍ قائم على التفكك والإنقسامات الحادة ، فالمجتمع العراقي – مثلاً – نجد صورته في رواية (المشطور) مبنيَّة على الإنقسام (الشيعي / السني) بعد أن كانت في أعمال ما قبل حقبة الربيع العربي قائمة على البنية الوطنية الواحدة للمجتمع ، فهذه البنى الإجتماعية المنقسمة - بفعل عدة عوامل سياسية وآيديولوجية وإجتماعية – نجدها تسعى للعودة الى ما كانت عليه ، ففي رواية (المشطور) ورد على لسان النصفين العراقيين المنشطرين هذا الحوار في سياق عثورهما على جزء رواية (الفيسكونت المشطور) لإيتالو كالفينو الذي فيه طريقة إلتحام النصفين الإيطاليين ، ليهتديا بدورهما لطريقة للإلتحام :

((- فلنفعلها إذن

- نفعل ماذا ؟ - نلصق أنفسنا . - هكذا ببساطة ؟

قال بوتاميا ، وتابع بشرود يشبه اليأس : علينا أن نفعل شيئاً قبل ذلك .

- هل تعني الطبيب ؟ سنأتي بطبيب دع الأمر لي . - ليس هذا ما أعنيه - إذن ماذا تعني ؟

- يجب أن نتقاتل . في حينها أدرك النصفان فداحة الثمن الذي يجب أن يدفعانه من أجل الإلتحام ، يجب أن يتقاتلا كما فعل نصفا الفيسكونت ميدرالدو ترَّالبا .

- هل نفعلها ؟ سأل ميزو - لا أعرف ، أحياناً الوحدة تحتاج الى سفك الدماء)) [xxx]

وفي مقطع آخر من الرواية تأكدت ثيمة الإنقسام المجتمعي في نهاية الأمر : **((النصفان هما الآخران تفرَّقا ، إنفصلا عن بعضهما ، وتبع كل واحد منهما طائفته ، من دون أن يتوادعان ، أو يقول أحدهما للآخر شيئاً ، كأنهما غريبان ، لا يعرفان بعضهما . حتى إنهما لم يلتفتا))**[xxxi]

وفي رواية (فرانكشتاين في بغداد) تجسَّدت هذه الثيمة الحسَّاسة ، فنجد شخصية (فرج الدلَّال) صاحب مكتب دلالية (الرسول الأعظم) يمثل التيار الشيعي الإسلامي بسطوته واستغلاله للتحولات الجديدة في العراق، وشخصية (أبي أنمار) صاحب فندق (العروبة) المتداعي المتهالك ذي الأثاث القديم ، يُمثل التيار السني القومي العروبي في العراق الذي ينتهي به المطاف للخضوع لرغبات فرج في الإستيلاء على فندقه ، وشخصية (حمه) الكردي مدير إستعلامات (فندق دلشاد) يُمثِّل الكرد أصحاب النزعة الإنفصالية عن العراق ، حيث أن فندق دلشاء منعزل عن الفوضى التي تدور حوله ويستقبل الزبائن الذين يبحثون عن الراحة والرفاهية مقابل أُجور كبيرة ، وشخصية العجوز (إيليشوا) صاحبة البيت التراثي في زقاق 7 بمنطقة البتاوين وبناتها المهاجرات الى استراليا يُمثِّلون الأقلية المسيحية التي هاجرت خارج البلاد ، والهجرة أصبحت خيارها الوحيد ، فهذه المكونات كانت في الخطاب الروائي العراقي قبل حقبة 2003 تحت مظلة الدولة الوطنية الواحدة – على الرغم من إختلاف وجهات النظر تجاه تلك الدولة - ، فتركيبتها الإجتماعية كانت واحدة من دون صراعات ، فنجد أن تلك التركيبة تجزَّأت إجتماعياً بعد 2003 لتُكوِّن في النهاية مسخاً يختلط في تشكيله القاتل والضحية ، ويتبادلا الأدوار بالتعاقب ، ليغدو المجتمع وحشاً كاسراً لا اسم له ولا ملامح ثابتة (الشسمة) الذي يصف نفسه بـ : **((أنا ولأني مكوّن من جذاذات بشرية تعود الى مُكوِّنات وأعراق وقبائل وأجناس وخلفيات إجتماعية متباينة ؛ أُمثِّل هذه الخلطة المستحيلة التي لم تتحقق سابقاً))**[xxxii]

وهذه الإنقسامات في تركيبة المجتمعات العربية ستكون في المستقبل بحسب رؤية (واسيني الأعرج) في روايته (حكاية العربي الأخير 2084) سبباً رئيساً من أسباب تقويض المجتمعات العربية وإنهيارها وتلاشيها وضياعها ، كما ورد ذلك في المقطع الآتي على لسان الشخصية الرئيسة : **((لقد أصبحنا داخل عالم يموت وينشأ من جديد بسرعة متواترة ، آرابيا [المنطقة العربية] أصبحت آرابيَّات متقاتلة ، كما قلت إلى أين سنذهب ؟ الى أي واحدة وبأي جواز؟ .... عندما يغيب العقل يحل محله الجنون ثم العدمية ، فيركض الإنسان الذي ماتت دولته نحو الطائفة ، وعندما تتفكك هذه الأخيرة يلتفت نحو القبيلة وإذا ما إنهارت وجد صفاءه في العائلة الكبيرة التي عندما تغيب يعود الى نفسه ، فيدخل إما في العزلة أو يصبح سجين البؤس والأنانية والنزعة الحيوانية))**[xxxiii]

فنلاحظ أن المعارضة الروائية جاءت بوصفها نوعاً من التحايل الفكري لطرح أفكارٍ حسَّاسة في ظل نظام اجتماعي غدا أفراده – على نحوٍ عام – مُرغمين على اتباع سلطة ما ، فجاءت المعارضة الروائية تمويهاً للخوض في مضامين إجتماعية مستجدة في ظل مجتمعات أصبحت ذا نزعة غير عقلانية في

توجهاتها العامة ، وتسيُّرها سلطات غير سوية لا تمنع الكتابة والإبداع حَسْب ؛ بل تمنع الحياة نفسها . فالتحولات الإجتماعية في المنطقة العربية في حقبة الربيع العربي وما أسفر عنها من ظواهر إجتماعية " سلبية " كانت سبباً رئيساً من أسباب ظهور المعارضة الروائية في الخطاب الروائي العربي المعاصر ، وهي بدورها سهَّلت من عملية تمرير تلك المضامين الحسَّاسة والخوض فيها ، وقدَّمتها للقارئ ولاسيما العربي على نحوٍ غير مستفز ، مقبول ، لا يُثير في نفسه سوى تساؤلات ، يقوده البحث المعرفي والتفكير العميق الناضج للحصول على إجابات لها .

الخاتمة ونتائج البحث :

1- تعد ظاهرة المعارضة الروائية معطى من معطيات المرحلة المعيشة في المنطقة العربية والتحولات الكبيرة التي طرأت عليها على مختلف الاصعدة ، فإنعكس تأثير ذلك على كل الخطابات التعبيرية وأحدث تحوَّلات كبيرة فيها على مستوى البناء والمضمون ، ولاسيما في الخطابات الأدبية التي تأثرت الى حدٍ كبير بالتحولات التي طرأت على المنطقة العربية .

2- كان للمستجدات السياسية التي طرأت على أنظمة الحكم العربية تأثيرٌ كبيرٌ في ظهور ظاهرة المعارضة الروائية ، لأنها مكَّنت النصوص العربية التي انتهجتها للتعبير عن أكبر قدر ممكن من تلك المضامين الحسَّاسة وتقديمها بأُسلوب فني جديد غير مسبوق في تاريخ الرواية العربية .

3- بما أن العامل السياسي هو الذي يؤثر في التحولات الإجتماعية في المنطقة العربية وليس العكس كما هو في اوربا مثلاً إذ يخضع النظام السياسي للقوى الإجتماعية وتأثيرها ، فنجد أن النظام السياسي المستجد في المنطقة العربية أسفر عن نظام إجتماعي جديد بظواهره ومظاهره ، مما أسفر عن تغيُّر نوعي في السلوك الإجتماعي وتوجهاته ، فأسفر ذلك عن تغيُّر في الرؤية وطرائق التعبير عن تلك التحولات والمضامين الإجتماعية الجديدة ، لتأتي المعارضة الروائية بوصفها أداة جديدة من أدوات البناء الفني للرواية العربية التي غدت التاريخ الآخر الذي يصوِّر المنطقة على نحوٍ موضوعي لا يستطيع التاريخ الحقيقي تصويرها على نحوه .

هوامش البحث:

([i]) ينظر : قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود ، سعيد يقطين ، ص9

([ii]) ينظر : الرواية العربية ورهان التجديد ، محمد برادة ، ص31 / وينظر أيضاً : الرواية السياسية ، طه وادي ، ص31–37

([iii]) ينظر : الرواية السياسية ، طه وادي ، ص50 - 51

([iv]) ينظر : م . ن ، ص59

([v]) ينظر : م . ن ، ص111 – 112 وينظر : الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية ، أحمد محمد عطية ، ص12

([vi]) ينظر : الرواية السياسية ، طه وادي ، ص53 - 54

([vii]) ينظر : الرواية العربية ورهان التجديد ، محمد برادة ، ص74

([viii]) رواية (حكاية العربي الاخير 2084) ، ص 325

([ix]) رواية (حكاية العربي الاخير 2084) ، ص 140 - 141

([x]) رواية (حارس سطح العالم) ، ص 20

([xi]) لقاء مع الروائية بثينة العيسى ضمن برنامج (بيت ياسين) المعروض على فضائية (الغد) منشور على شبكة النت على الرابط الآتي : https://www.youtube.com/watch?v=v9CRlmCptx4

([xii]) ينظر : الأساطير اليونانية والرومانية ، أمين سلامة ، ص16 – 20 / وينظر أيضاً : معجم الأساطير ، ماكس شابيرو و رودا هندريكس ، ص 216)

([xiii]) (نحرث عوالمنا السردية من مأساتنا العراقية) عنوان لحوار صحفي أجراه (صفاء ذياب) مع الروائي (ضياء جبيلي) نشر على موقع (القدس العربي) بتاريخ 22 / 3 / 2017 . على الرابط الآتي : https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF%D8%B6%D9%8A%D8%A7%D8%A1%D8%AC%D8%A8%D9%8A%D9%84%D9%8A-%D9%86%D8%AD%D8%B1%D8%AB%D8%B9%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D9%85/

([xiv]) ينظر : في نظرية الأدب ، شكري عزيز الماضي ص157- 158 . وينظر أيضاً : علم الإجتماع الأدبي (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد) ، أنور عبد الحميد ، ص18

([xv]) ينظر : الرواية العربية ، روجر آلن ، ص 85

([xvi]) ينظر : علم الإجتماع الأدبي (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد) ، ص 264 - 265

([xvii]) ينظر : الإبداع الروائي اليوم ، أعمال ومناقشات لقاء الروائيين العرب والفرنسيين عام 1988 ، ص 41 – 47

(*) للمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع الى : في نظرية الأدب ، شكري عزيز الماضي / وعلم الاجتماع الأدبي ، لأنور عبد الحميد

([xviii]) ينظر : علم الإجتماع الأدبي (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد) ، ص50 - 51

([xix]) ينظر : أنماط الرواية العربية الجديدة ، شكري عزيز الماضي ، ص11

([xx]) رواية (حكاية العربي الاخير 2084) ، ص 219

([xxi]) ينظر : الإبداع الروائي اليوم ، ص41-47 / وينظر أيضاً : إشكالية تداخل الروائي وتماهيه مع رواته وشخصياته الروائية رواية (ظلال جسد ضفاف الرغبة) لسعد محمد رحيم أنموذجاً ، بحث منشور في مجلة جامعة ديالى للعلوم الإنسانية ، ع 81 ، 2019 ، ص25 ، للباحثين : علي محمود أحمد و كوثر أحمد كريم .

([xxii]) ينظر : الإبداع الروائي اليوم ، ص74 - 75

([xxiii]) ينظر : السرديات المصطنعة نظرية موت الواقع في الرواية العربية ما بعد الحداثية د. خالد علي ياس ، ص45 - 46

([xxiv]) م . ن : ص 61

([xxv]) لقاء مع الروائية بثينة العيسى ضمن برنامج (حديث العرب) المعروض على فضائية (سكاي نيوز عربية) منشور على شبكة النت على الرابط الآتي : https://www.youtube.com/watch?v=ktjE67wM6NI

([xxvi]) ينظر : صور المثقف ، ادوارد سعيد ، ص28 - 29

([xxvii]) لقاء مع الروائي احمد سعداوي ضمن برنامج (ثقافة) المعروض على فضائية (France 24 عربية) منشور على شبكة النت على الرابط الآتي :

([xxviii])(لقاء مع الروائية بثينة العيسى ضمن برنامج (حديث العرب) المعروض على فضائية (سكاي نيوز عربية) منشور على شبكة النت على الرابط الآتي : https://www.youtube.com/watch?v=ktjE67wM6NI

([xxix]) رواية حارس سصح العالم ، ص13 – 14

([xxx]) رواية المشطور : ص 234

([xxxi]) رواية المشطور : ص 237

([xxxii]) رواية فرانكشتاين في بغداد ، ص161

([xxxiii]) رواية حكاية العربي الأخير 2084 ، ص 141

المصادر والمراجع :

1. الأساطير اليونانية والرومانية ، أمين سلامة
2. الإبداع الروائي اليوم ، أعمال ومناقشات لقاء الروائيين العرب والفرنسيين عام 1988 ، مجموعة من الكُتَّاب ، ط1 ، 1994 ، دارالحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية سوريا .
3. أنماط الرواية العربية الجديدة ، شكري عزيز الماضي ، منشورات عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – دولة الكويت ، 2008 .
4. الرواية السياسية ، طه وادي ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، القاهرة ، 2002 .
5. الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية ، أحمد محمد عطية ، الناشر : مكتبة مدبولي – القاهرة ، 1981 .
6. الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية ، روجر آلن ، ترجمة : حصة ابراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1997
7. الرواية العربية ورهان التجديد ، محمد برادة ، منشورات مجلة دبي الثقافية الإصدار 49 ، ط1 2011 .
8. السرديات المصطنعة نظرية موت الواقع في الرواية العربية ما بعد الحداثية د. خالد علي ياس ، اصدار دار الثقافة حكومة الشارقة ، ط1 ، 2022 .
9. صور المثقف ، ادوارد سعيد ، ترجمة : غسان غصن ، دار النهار – بيروت ، 1996 .
10. علم الإجتماع الأدبي (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد) ، أنور عبد الحميد ، دار النهضة العربية .
11. في نظرية الأدب ، شكري عزيز الماضي ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ، ط 1 1993 .
12. قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود ، سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت لبنان ، ط1 ، 2002 .
13. معجم الأساطير ، ماكس شابيرو و رودا هندريكس ، ترجمة : حنَّا عبود ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ، دمشق سورية ، ط 3 ، 2008 .
14. الآن هنا ، وخماسية مدن الملح ، عبد الرحمن منيف .
15. البحث عن وليد مسعود ، جبرا ابراهيم جبرا .
16. رادوبيس ، و عبث الأقدار ، وكفاح طيبة ، نجيب محفوظ .
17. رجال في الشمس ، غسان كنفاني .
18. رواية (حكاية العربي الاخير 2084) ، واسيني الأعرج .
19. رواية المشطور ، ضياء جبيلي .
20. رواية حارس سصح العالم ، بثينة العيسى .
21. رواية فرانكشتاين في بغداد ، احمد سعداوي .
22. شرف ، صنع الله ابراهيم .
23. معارضة الغريب ، كمال داود .
24. الوشم ، عبد الرحمن مجيد الربيعي .
25. الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل ، اميل حبيبي .
26. إشكالية تداخل الروائي وتماهيه مع رواته وشخصياته الروائية رواية (ظلال جسد ضفاف الرغبة) لسعد محمد رحيم أُنموذجاً ، بحث منشور في مجلة جامعة ديالى للعلوم الإنسانية ، ع 81 ، 2019 ، ص25 ، للباحثين : علي محمود أحمد و كوثر أحمد كريم .
27. (نحرث عوالمنا السردية من مأساتنا العراقية) عنوان لحوار صحفي أجراه (صفاء ذياب) مع الروائي (ضياء جبيلي) نشر على موقع (القدس العربي) بتاريخ 22 / 3 / 2017 .
28. موقع you Tube